التى تحتضنها والدعوة والرسالة التى تتبناها ، والخصائص والمزايا التى تحملها ، حتى لا يعود هذا الإيمان إيمان رجل عادى أو إيمان رجل الشارع بل يكون إيمان عالم ، إيمان مثقف ، إيمان دارس ، ويطمئن عقله كما يطمئن قلبه ، ولا يعود كما يقول الدكتور محمد إقبال : «قلبه مؤمن وعقله كافر» ، مشيراً إلى فيلسوف غربى ... وإذا كان الصراع لا يجوز بين الفرد والجماعة ، فإنه كذلك لا يجوز بين القلب والعقل فى حياة المرء الانفرادية ، فإذا كانت هناك جامعة تسبب هذا الصراع ، أو يسببه منهاجها التعليمى ومنهجها العلمى ، ونظامها الادارى ، وبيئتها العلمية ، فذلك شؤم بعده للبلد الذى تقوم فيه الجامعة .

لابد من اطمئنان القلب والعقل معاً :

إن الغاية الأساسية للجامعات الاسلامية ، أن توجد الإيمان بتلك الأشياء التى أشرت إليها ، الإيمان الذى يأتى عن طريق العلم والثقافة والدراسة ، وعن الشعور والتفكير ، وعن طريق اقتناع العقل ، وعن الدراسة المقارنة ، وإذا كان هناك رجل إنما يؤمن قلبه ولا يطمئن عقله ، وهو يعلل عقله ويسليه ، ويحاول أن لا يستيقظ عقله ، شأن الأمم غير المسلمة العديدة التى ترى بقاء دياناتها ورقيها فى عدم يقظة الشعور ، وتحاول أن يظل أتباعها سادرين فى سبات الغفلة ، مسدوداً عليهم منفذ النور والهواء ، ومن هنا وقع بين «الكنيسة» و «العلم» ذلك الصراع الدموى الذى تقرؤن قصته المؤلمة المفجعة فى كتاب «الصراع بين الدين والعلم» (Conflict Between Religion & Science) للعالم الأمريكى المعروف

«درابر» (Johan William Draper) وإنما وقع هذا الصراع لأن الكنيسة كانت ترى أن الخير كل الخير فى تبلد الشعور الإنسانى بل كانت تعمل فعلاً على تجميده وإماتته ، وكانت تؤمن بأن من الخير والسعادة أن يكون الإنسان محدود العلم قاصر المعرفة ، بل عديم العلم جاهلاً ، ومادام الحال على هذا المنوال ، كان الإيمان بالكتاب المقدس راسخاً قوياً ، وكانت المسيحية عميقة الجذور ، بعيدة الغور فى المجتمع ، ذلك أن العهد العتيق كان يشتمل على كثير مما لا يؤيده العلم الحديث ، بل ينفيه ويفنده ، فكانت الكنيسة رأت من المصلحة أن لا يتيقظ شعور المسيحى ، ولا يتفتح وعيه ولا يتسع أفقه ولا يتقدم العلم ، فحاولت أن تقف فى وجه العلم لأنها ظنته عدواً لها لدوداً ، وخصماً محارباً حانقاً ، فأنشأت محاكم التفتيش الدينى العقائدى – (Courts of inquistion) وانتشرت فى ربوع العالم المسيحى وعواصمه ومراكزه ، ومنحت الحرية المطلقة فى محاكمة أصحاب النظريات العلمية والاكتشافات فى عالم الطبيعة والفلك والعلوم الطبيعية ، وإجراء العقوبات القاسية الوحشية على معتنقيها ومعلنيها ، وقد أثبت بعض المؤرخين أن ضحايا هذه المحاكم يربو عددها على عدد المصابين والقتلى فى الحرب الكونية الأولى[1] ، وقد جرّ هذا الحجر العلمى والفكرى وفرض إطار خاص ودائرة محدودة من الدراسات وكتب المطالعة على الشباب والدارسين ضرراً كبيراً على مستقبل الدين وعقلية

(1) John Davenport Apology for Muhammad & The Quran

الجيل الصاعد . وأحدث حركة رد فعل عنيفة ضد هذا الاحتكار العلمى والاستبداد الدينى والنظر الضيق المتزمت .

درس من تجارب الماضى :

وقد أثبت علم التربية وعلم النفس أن الحجر على الشباب فى القراءة والاطلاع . كالحجر على الأطفال القاصرين الذين لم يبلغوا سن الرشد . تجربة مخفقة وعملية مثيرة فيهم التساؤلات والشكوك ، والنهامة بالممنوع المحظور . وأن هذا الصنف من الدارسين غير جدير بالثقة فى مواجهة الأفكار الغربية والتحديات العلمية والعقائدية . إن المنهج التربوى المتزن السليم هو الاطلاع على وجهات النظر والمدارس الفكرية المختلفة مرفقاً ذلك بتوجيه الأساتذة الراسخين فى العلم والدين . مع مناقشتها وعرضها على المحك العلمى والدينى وتقرير الصحيح وتزييف الزائف . وذلك مما يتفق عليه خبراء التربية وأصحاب التجربة والاختصاص فى علم النفس وعلم الاجتماع .

يقول ا . وهتنى جريسولد A. Whitney Griswald فى كتابه مقالات حول التعليم Essays on Education :

«كانت عاقبة الرقابة والتعذيب . الفشل دائماً فى التاريخ ، إن أقوى سلاح وأنفذه لمكافحة الأفكار السيئة ، هو سلاح الأفكار الطيبة ، ولا تنبع الأفكار الطيبة إلّا من منبع الحكمة ، وليس هناك طريق أضمن لحصول الحكمة إلّا طريق التعليم الحر الذى لا عنف فيه» .

ويقول ثيودر شرويدر Theodope Schuoeder فى كتابه «العبودية العقلية» Intellectual Slavery :

«تساعد الرقابة على الاحتفاظ بمختلف أشكال الظلم ووقايتها ، وننخدع بهذه الوسائل ونحسبها ضماناً لحريتنا وديموقراطيتنا ، لكنها تحرمنا الفراسة التى نحتاج إليها فى الطريق الطبيعى للنمو الاجتماعى وعادة يجهل هذا الجهل الثورات أكثر دموية» .

واضطرت المسيحية أخيراً أن تضع السلاح أمام مد العلم وسيله الجارف ، وتياره العنيف ، لأنه حاجة الإنسانية ، ومقتضاها الطبيعى ، وعاطفة الإنسان الداخلية ونعمة الله الغالية ، وضرورة العالم البشرى . جعله الله لكى يخضر وينمو ويورق ويثمر ، لا لكى يذوى ويذبل ويموت ، وهل تموت الحقائق ؟ على كل فإن العلم كسب المعركة وذاقت الكنيسة هزيمة وعاراً وشناراً منقطع النظير أمام العلم وتطلع الإنسان إليه وطلبه الجامح له .

تلك هى الكارثة المشؤمة التى وقعت فى العالم المسيحى ، ولكنها تركت آثارها على دنيا البشر كلها وعلى جميع الديانات تقريباً ، وقد جعلت الناس يفهمون أنه لا يمكن أن يتقدم العلم والعقل معاً وأن يساير الدين العلم ، ولا بد هنا يصفتى دارساً للتاريخ أن اعترف ـ مع الأسف ـ أن هذا التصور الخاطىء قد نال بعض نصيبه من المفعول فى بعض الدول الاسلامية ولو لبعض الحين ، لكنه ما لبث أن لقى حتفه ، لأنه يتنافى مع روح الاسلام وطبيعته ولم يدم هذا الصراع المصطنع فى العالم الاسلامى ، وإنما كان قد نشأ عن طريق أوربا المسيحية ، ولكنه غاب وانقشع كسحابة صيف ، أو بسرعة أكثر منها .

مصير العلم مرتبط بالقلم :

أرى أن من واجبات الجامعات الاسلامية أن تحاول أن لا تقع فجوة بين العلم والدين كما وقعت بينهما فى العالم المسيحى ، أو فى دنيا الديانات التى لم تكن فيها رابطة بين العلم والعقل ، بل إن نشوءها كان مديناً للجهل ، فقد تولدت وازدهرت بمعزل عن العلم والعقل بل على غفلة من العلم والعقل ، ففيها مجال لنشوء الفجوة بين العلم والدين وبين العلم والعقل ، ولكن لا يتصور ذلك فى الدين الذى أعلن دعوته منذ اليوم الأول بل منذ اللحظة الأولى بما يلى :

﴿إقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * إقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم﴾[1] .

الدين الذى لم ينس هذا القلم المتواضع حتى فى الحلقة الأولى من وحيه ، ولم ينسه لدى هبوب النفحة الأولى من النفحات الربانية ، لم ينس أن يؤكد أن مصير العلم مرتبط بالقلم ، لم ينسه فى خلوة غار حراء التى ارتادها نبى أمى يتلقى الرسالة الإلهية لهداية البشرية ، ذلك النبى الذى لا عهد له بالقلم ولم يعرف من ذى قبل كيف يحرك القلم ، ولم يتعلم فن الكتابة والقراءة بتاتاً ، شىء لن يجد الانسان نظيره فى تاريخ العالم البشرى ، ولا يمكنه أن يتصور هذا المكان العالى ، لا يمكنه أن يتصور أن ينزل وحى على نبى أمى بين أمة أمية فى منطقة لم تعرف القراءة والكتابة معرفة تذكر ، فضلاً عن المدارس والمعاهد ودور التعليم والجامعات ، فى الوقت الذى لأول مرة تم فيه اتصال السماء بالأرض بعد قرون ، ولا يبتدىء

---

(١) سورة العلق الآية ١ ـ ٥ .

هذا الوحى بكلمة «أعبد» ولا بكلمة «صل» أو ما إليها من الكلمات المتجانسة . وإنما يبتدىء بكلمة «إقرأ» يخاطب المنزل عليه بالقراءة ولا عهد له بها ، لكى يقرر ويؤكد له أن الأمة التى يكلف بهدايتها وتربيتها وتعليمها هى أمة ليست ولوعاً بالعلم فحسب ، بل ستكون معلمة العالم مولعة بنشره وتصعيده وترقيته . والعهد الذى تقوم فيه بوظيفة الهداية والتبليغ والتربية والتعلم . إنه ليس عهد الأمية والوحشة والجهل ، وعهد الظلمة والهدم والتخريب ، وإنما هو عهد العلم والعقل والتفكير ، وعهد النظر والحكمة ، وعهد البناء والتعمير ، وعهد حب الإنسانية ، وعهد الرقى والتقدم .

كانت التجربة الفريدة الطريفة ـ لو صح التعبير ـ فى تاريخ الديانات وتاريخ العالم أن الوحى الأول الذى نزل على النبىّ الأمى بين الأمة الأمية كانت بدايته بكلمة «اقرأ» : ﴿**اقرأ باسم ربك الذى خلق**﴾ كان من الخطأ الفادح أن انقطعت صلة العلم بالرب ، فحاد عن الصراط المستقيم ، فجاء الوحىّ الالهى الذى نزل على النبى الأمى يصله بالله ويربطه بالرب تبارك وتعالى ، حيث جاء ذكر العلم مقروناً باسم الرب ، لكى يعلم البشر ضرورة بداية العلم والتعليم والقراءة باسم الرب الذى وهب النعمة الغالية ومن بها على عباده وهو الذى خلقه ، فلا يتقدم تقدماً متزناً إلّا تحت توجيهه وهدايته ، إن الآية التى نتحدث عنها ، إنها ذات ثورة وانقلاب عظيم فى التفكير والعقلية والنفسية ، قرعت الآذان البشرية فى بداية الإسلام ، وكان ذلك شيئاً لم يخطر من أحد على بال ولم يتصوره فى حال من الأحوال ، لو سئل الأدباء والحكماء والفلاسفة والعلماء فى العالم البشرى عن مفتتح هذا الوحى الذى سينزل على النبى الأمى ،

لم يكن أحد منهم ـ يعرف طبيعة تلك الأمة التى نزل بينها الوحى ويعرف عقليته ـ ليقول إنه سيبتدىء بكلمة «اقرأ» كان لهم أن يتنبأوا بكل شىء ، ولكن لم يكن لهم ليتكهنوا أن الوحى سيكون استهلاله بكلمة «اقرأ» ، ثم إنه لم يبتدىء بكلمة «العلم» وإنما بالقراءة ، والقراءة تتضمن الكتابة والقلم والورق ، بينما العلم قد يكون وهبياً لا يحتاج إلى القلم والقراءة والكتابة والورق ، مما دل على أن هذا العلم سيكون وليد القلم ، وليد الورق ، وليد الكتابة ، وليد المكتبات والكتب والمؤلفات والصحف ، وليد التجارب وليد الذكاء : ﴿**اقرأ باسم ربك الذى خلق**﴾ .

هذا الدين لن يفارق العلم :

مما يجب الانتباه له أن الوحى الالهى أكد أن طبيعة هذا الدين أنه لن يفارق العلم ، لأن الرسالة الأولى التى وجهته إلى البشرية تأمر بالقراءة ، فكيف يسوغ أن يبقى المسلمون جاهلين لا يعرفون القراءة ، والمسلم الذى قطع صلته عن العلم ليس بمسلم حقيق ، ولا يجوز له أن يدعى أنه ممثل صحيح للإسلام ، ثم يجب الانتباه لهذه الدعوة الثورية : ﴿**اقرأ باسم ربك الذى خلق**﴾كيف ينبه الوحى الالهى على أن تكون هذه الرحلة ـ رحلة العلم ـ فى هداية هاد كامل ، وليس هو إلّا الله العليم الكريم ، لأن الرحلة طويلة شاقة ، معقدة خطرة ، والطريق وعرة ذات منعطفات تعترضها بحار وأنهار ذات عمق سحيق ، وتتخللها غابات كثيفة فيها سباع مخوفة ، وحيات وعقارب سامة وكل حيوان ضار .

لكنه ليس مجرد علم ، ليس عبارة عن معرفة بالدمى واللعب ، وليس عبارة عن التسلية ، وليس مما يحرش فيما بين الإنسان

والإنسان والأمة والأمة ، وليس عبارة عن معرفة طرق ملء البطون ، وعبارة عن تحريك اللسان ولوك الكلمات بل هو : ﴿**اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * إقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم**﴾ .

فهل رفع من قيمة القلم أحد فى التاريخ البشرى أكثر من ذلك ؟ حيث يذكر بهذه الأهمية ، وبهذا التمهيد الكريم ، فى خلوة غار حراء ، وفى الوحى الأول الذى ينزل من السماء ، ذلك القلم الذى ربما لم يكن بالامكان تواجده فى بيت من بيوت مكة ، لا أكاد أدرى لئن رحتم تبحثون عنه رجعتم بفائدة أم لا ، ربما وجدتموه فى بيت ورقة بن نوفل ، أو أى رجل تعلم الكتابة فى ديار العجم ، القلم الذى ربما لا تجدون ذكره فى دواوين الشعراء العرب الجاهليين المعاصرين مهما قلبتم الصفحات وأعدتم القراءة .

عصارة كل علم وثقافة :

﴿علم الإنسان ما لم يعلم﴾ :

ثم دل على حقيقة خالدة ذات انقلاب عظيم ، وهى أن العلم لا حد له ولا نهاية ، فقال : ﴿**علم الإنسان ما لم يعلم**﴾ ، وليس العلم الحديث (SCIENCE) إلّا إنعكاساً لـ ﴿**علم الإنسان ما لم يعلم**﴾ ، وكذلك التكنولوجيا ليس إلّا مظهراً لـ ﴿**علم الإنسان ما لم يعلم**﴾ ، وينزل الإنسان على القمر ، ولا يعنى ذلك إلّا ﴿**علم الإنسان ما لم يعلم**﴾ ويغزو الفضاء ، ويطوى أرجاءه طياً ، ويسخر أشعة الشمس ويشق طريقه بين النجوم والكواكب ويحلم بالنزول بين السماكين ، إن كل ذلك ليس إلّا عبارة عن ﴿**علم الإنسان ما لم يعلم**﴾ .

على كل فإن الأمة التى كان أساسها الأول على القراءة ، وخاطبها الوحى الإلهى الأول بذكر القلم ، إن تلك الأمة لن تفارق العلم والمعرفة ، لأنها تلازمه ملازمة الظل أو ملازمة الغريم .

ثم يجب أن يكون فى الاعتبار لدى إنشاء كل مدرسة أو جامعة أو اتخاذ منهج تعليمى لتعليم هذه الأمة ، أن يكون الهدف من كل ذلك ترسيخ الإيمان بالعقائد والحقائق التى آمنت بها من ذى قبل ، وأن يتأتى هذا الترسيخ عن طريق القلب والعقل معاً ، ولا يكفى اطمئنان القلب أو العقل فقط ، لأنه حينئذ سيحدث صراع بينهما فى الحياة الفردية للإنسان ، وسيتدرج هذا الصراع إلى الحياة الجماعية .. وعلى ذلك فيتخرج جيل يتصارع مع مجتمعه ، ويتصارع مع دينه وعقيدته ، وتضيع كل القوى فى إزالة «الأنقاض» فقد رأى بعض قادة بعض الشعوب والبلاد الإسلامية أنه يجب أولاً إزالة الأنقاض ، وركزوا كل عنايتهم على إزالة الأنقاض من العقائد والحقائق ، واستنفذت هذه العملية كل قواهم ، واستغرقت فرصة أعمارهم ، ولم يتمكنوا من عرض دعوتهم ونشر رسالتهم ، وزرع أفكارهم التى كانوا بصدد نشرها .

فإذا كان هناك منهاج تعليمى يعمق إيمان الأمة بالعقائد والحقائق التى تحتضنها فهو منهاج موفق ، ولا سيما بالنسبة إلى الإنسان المسلم الذى جاء يحمل رسالة ويحتضن دعوة ، فيجب أن يكون منهاجنا التعليمى والثقافى بحيث يرسخ الإيمان فى قلب المثقف وقلب الدارس وقلب الطالب الجامعى ، وقلب الفيلسوف وقلب المفكر ، ويجعلهم جميعاً توفر لهم عقولهم دلائل لذلك ، ويستخدمون الثروة العملية القديمة والجديدة المنتشرة على ظهر

البسيطة فى تحقيق هذا الغرض الأكبر لتقرير هذه الدعوى الكريمة .

أيها السادة ! إذا استطاعت جامعة أن تصنع ذلك فهى الجامعة التى تستحق أن تسمى جامعة إسلامية ، وأعتقد أن ذلك خير تعريف لها .

حماية الدين من التحريف والمسلمين من الانحراف :

وعلى حملة علوم الدين وأصحاب الرسوخ والاختصاص فيها من المتخرجين فى الجامعات الاسلامية والمدارس الدينية ، وعلى الدعاة ، عهدة صيانة الاسلام عن التحريف والمسلمين عن الانحراف ، والحفاظ على الدين ، والذب عن حوزته ، ويحتاجون من أجل القيام بذلك إلى الصفات الدقيقة السامية المثالية ، والقوة الروحية الداخلية ، والثقة بخلود الدين ، والغيرة عليه ، والقدرة على التميز الدقيق بين الجاهلية والاسلام والإشراك والتوحيد والسنة والبدعة ، والامتياز بالاشتغال بالحديث الشريف[1] ، ومطالعة تاريخ المصلحين المجددين للدين فى عصور مختلفة[2] إلى ما لا يحتاج إليه بطبيعة الحال من يستعمله الله فى نشر دين من الأديان ، ولذلك فإن هذا الواجب وضع على عاتق العلماء ، ونائبى الرسول

---

(١) والتفصيل فى رسالتنا : «دور الحديث فى تكوين المناخ الاسلامى وصيانته» ، فليراجع ، طبع المجمع الاسلامى العلمى ندوة العلماء الكهنؤ ـ الهند .

(٢) ليرجع إلى سلسلة «رجال الفكر والدعوة فى الاسلام» طبع دار القلم الكويت ١ ـ ٤ .

ﷺ ، وخص به العلماء الربانيون المتفقهون فى الدين الغيارى عليه المميزون بين الاسلام والجاهلية ـ بجميع أنواعها وألوانها ـ المطلعون على تاريخ الديانات والصحف التى تعرضت لتحريفات المحرفين وأغراض المغرضين ، وقد جاء فى حديث صحيح : «يحمل هذا العلم من كل خلف عدو له ، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين[٣]» .

وما كانت لتجرى هذه الكلمات العميقة المعانى ، والدقيقة الدلالات إلّا على لسان نبى مرسل مصدوق ، فلو قرأتم تاريخ الاصلاح والتجديد فى الإسلام ، والمساعى والمجهودات التى قام بها العلماء والأئمة ، والقائمون بحفظ الدين لوجدتم جميع الجهود المبذولة فى سبيل الحفاظ على الدين تأتى تحت هذه العناوين الثلاثة ، إن للكلمات أعماقاً وآفاقاً هى أوسع وأعمق مما تبلغ إليه فهوم الرجال وتحد بحدود النماذج والأمثال .

ومن واجبات العاملين فى مجال الدعوة الاسلامية هو صيانة الحقائق الدينية والمفاهيم الاسلامية من التحريف ، وإخضاعها للتصورات العصرية الغربية ، أو المصطلحات السياسية والاقتصادية التى نشأت فى أجواء خاصة ، وبيئات مختلفة ، ولها خلفيات وعوامل وتاريخ ، وهى خاضعة دائماً للتطور والتغير فيجب أن نغار على هذه الحقائق الدينية والمصطلحات الاسلامية غيرتنا على المقدسات وعلى الأعراض الكرامات ، بل أكثر منها وأشد ، لأنها حصون الاسلام المنيعة وحماه وشعائره ، وإخضاعها للتصورات

(٣) مشكاة المصابيح ، نقلاً عن البيهقى الفصل الثانى ، ص/٢٦ .

الحديثة أو تفسيرها بالمصطلحات الأجنبية إساءة إليها لا إحسان ، وإضعاف لها لا تقوية ، وتعريض للخطر لا حصانة ، ونزول بها إلى المستوى الوطنى المنخفض لا رفع لشأنها كما يتصور كثير من الناس .

العناية بتربية السيرة :

والوظيفة الثانية للجامعات هى تربية السلوك والسيرة ، حتى يكون المتخرجون فيها قدوة للعلماء والدعاة فضلاً عن أفراد الأمة وأحاد الناس ، فلتوجد الجامعات سيرة يرأ صاحبها بنفسه عن أن يبيع ضميره «بحفنة من شعير» إن الفلسفات والنظم المضادة للإسلام ترى أن إنسان اليوم يمكن شراؤه فى السوق بقيمة أو بأخرى ، فإن لم يرض بهذه الكمية من الثمن فسيرضى بكمية منها ... وسر النجاح الحقيقى لجامعة ما أن تربى السيرة ، فتخرج رجالاً من المثقفين لا يرضون أن يبيعوا ضمائرهم بأى قيمة مها كانت رفيعة غالية ، ولا تستطيع فلسفة هادمة أو دعوة منحرفة ، أو حكومة ذات سياسة خاطئة ، أو قوة مدمرة ، مهما كانت لبقة ذات دهاء ، أن تشتريهم بأى ثمن غال ، ويقولون بملء أفواههم بلسان المقال أو بلسان الحال :

«نرى العنقاء أكبر أن تصادا» .

يقول الدكتور محمد إقبال :

«إن حرية القلب هى سيادة وسلطان ، أما العناية الزائدة بالبطن فهى مدعاة للموت ، والخيار بيديك ، فإما هذا وإما ذاك» ، يا أيها الطائر اللاهوتى ! (يخاطب الإنسان المسلم) أعلم أن الموت خير من القوت الذى يقصر جناحك ويمنعك من التحليق» .

من عوامل التأثير فى المجتمع وقوة المقاومة للتحديات والمغريات :

ويحلو لى أن أنقل هنا قطعة من كتابى : «رجال الفكر والدعوة فى الاسلام (الجزء الأول)» بمناسبة الحديث عن زهد الإمام أحمد بن حنبل وتوكله على الله وعزوفه الزائد عن أموال الحكومة وعطاء الخليفة والأمراء :

«وقد رأينا الزهد[1] والتجديد مترافقين فى تاريخ الاسلام : فلا نعرف أحداً ممن قلب التيار ، وغير مجرى التاريخ ، ونفخ روحاً جديدة فى المجتمع الاسلامى أو افتتح عهداً جديداً فى تاريخ الاسلام ، وخلف تراثاً خالداً فى العلم والفكر والدين ، وظل قروناً يؤثر فى الأفكار والآراء ، ويسيطر على العلم والأدب ، إلّا وله نزعة فى الزهد ، وتغلب على الشهوات ، وسيطر على المادة ورجالها ، ولعل السر فى ذلك أن الزهد يكسب الإنسان قوة المقاومة ، والاعتداد بالشخصية والعقيدة ، والاستهانة برجال المادة ، وبصرعى الشهوات ، وأسرى المعدة ، ولذلك ترى كثيراً من العبقريين والنوابغ فى الأمم ، كانوا زهاداً فى الحياة ، متمردين على الشهوات ، بعيدين عن الملوك والأمراء والأغنياء فى زمانهم ، ولأن الزهد يثير فى النفس كوامن القوة ، ويشعل المواهب ويلهب الروح ، والدعة والرخاوة تبلد الحس ، وتنيم النفس ، وتميت القلب» ،

(١) ليس المراد به الزهد الأعجمى أو المسيحى الرهبانى ، فلا رهبانية فى الاسلام ولا يجوز تحريم ما أحل الله من الطيبات ، إنما المراد به سمو النفس والنظر ، والزهد فى زخارف الحياة وفضولها وكمالياتها ، والتهافت على حطام الدنيا ، والتنافس فى الجاه والمنصب .

روح التضحية والفـداء :

والمسئولية الثالثة للجامعات الاسلامية أن تخرج شباباً يقفون حياتهم لخدمة الأمة ، ويستعدون للتضحية والفداء ، ينعمون بالجوع بما لا ينعمون بالشبع والرى والتنعم والتمتع بالحياة ، ويطيبون نفساً بالحرمان ، ما لا يطيبون بالوجدان ، ويصرفون أوقاتهم وقواهم الخيرة ومؤهلاتهم الفكرية والعلمية ، والرصيد العلمي والفكرى الذى زودتهم به جامعاتهم ، فى رفع رأس الأمة عالياً وفى أعلاء كلمة الله ، وفى صنع أمة ذات رسالة ، وبناء بلد مسموع الكلمة مرهوب الجانب .

فهذان أمران لا بد منهما : الأمر الأول أن توفر الجامعات الاسلامية غذاءً يشبع العقل والقلب معاً ، وضوءاً ينير لهما الطريق فى وقت واحد ، حتى يتجها جنباً إلى جنب ويتعاون متبادل ، إلى تعزيز الإيمان بالحقائق والعقائد التى آمنت بها الأمة .

تكوين اختصاصات وقدرات ممتازة فى الدراسـة والتحقيق :

ولا بد أن يكون نصب أعينكم هو تخريج الرجال ذوى القدرات العالية ، وأريد أن أصارحكم بهذه المناسبة أن قيمة بلد من البلاد ليست فى كثرة جامعاتها ومعاهدها ، إنها نظرية بالية قد تقادم عهدها ، وأصبح أصحابها يعرفون بالرجعية وقصر النظر ، بل القيمة فى كثرة أبنائه الذين يثبتون تميزهم واختصاصهم فى علم من العلوم وفى مجال من مجالات البحث والتحقيق ، ويقفون حياتهم للبحث والدراسة ، ونشر العلم والثقافة ، وتثقيف الأمة والشعب ،

ورفع معنويات أمتهم . وصنعها أمة ذات قلب وضمير أبى ، وفى كثرة الشباب الذين ينقطعون إلى خدمة الدين والعلم والأمة والبلد ، ضاربين الشهرة الكاذبة ورقيهم الشخصى عرض الحائط ، وذلك هو المقياس الحقيقى الأصيل ، الذى يقاس به البلد والأمة ، وليكن هذا هو المقياس الوحيد فى الشرق والغرب ، فلا نقيم لبلد قيمة إلّا نظراً إلى عدد الشباب الذين يتسامون عن لذائذ الحياة الرخيصة ، والمناصب والجاه ، والتقدم الشخصى ، ويتوفرون على العمل الجاد البناء ، وعلى العمل العلمى الايجابى النافع ، على رفع مستوى الأمة عَقلياً وفكرياً ، وعلى التوصل إلى نظريات علمية ذات أهمية ، وعلى بحث علمى مضن يتطلب الصبر والتحمل على تعزيز البلاد من جميع النواحى .

إن قيمة "الشعوب والأمم ـ فضلاً عن قيمة الجامعات والمؤسسات ـ وسر عظمتها وما تستحق به من إجلال وإكبار ، وتقدير واعتراف ، وجود أصحاب تفوق واختصاص وشهرة عالمية ، فى علوم وآداب ، ومجالات علمية ، وبحوث واكتشافات جديدة ، وهذه كانت ميزة الأمة الإسلامية فقد كانت للمسلمين الرئاسة العلمية والزعامة الفكرية نحواً من ألف سنة على الأقل[1] ، باقرار من المؤرخين الأوروبيين .

---

(١) إذا اعتبرنا القرن الثانى الهجرى ـ وهو زمن الحكم الأموى الواسع ـ بداية تأثير المسلمين العلمى الفكرى فى الشعوب والبلاد المتحضرة التى كان يحكمها المسلمون ، وسلمنا استمراره إلى القرن الحادى عشر الهجرى ، فقد نشأت الحركة الانتقالية فى أوربا **Renaissance** فى القرن الرابع عشر المسيحى ، وانتشرت فى القرن السابع عشر المسيحى (الحادى عشر الهجرى) وتميزت بازدهار الأدب والفن بانبلاج فجر العلم الحديث فى الغرب المسيحى .

ومن واجبات المتخرجين فى جامعاتنا النابغين أن يهيؤا بديلاً عن كتب المستشرقين وعلماء الغرب فى التاريخ الاسلامى وفى تاريخ الحضارة الاسلامية والفكر الاسلامى والعلوم الاسلامية ، كالحديث والفقه وأصول الفقه وتاريخ التشريع الاسلامى ، التى اعتبرت مرجعاً فى هذه المواد ، وقررت فى كثير من الجامعات العربية والاسلامية واعتمد عليها كثير من أساتذتها ومن الباحثين فى هذه الموضوعات وأصحاب رسائل الدكتوراة ، فبثت السموم فى عقول كثير من الدارسين والباحثين الناشئين ، وأنشأت شبهات حول الاسلام والمصادر الاسلامية وأحدثت فى نفوسهم يأساً عن مستقبل الاسلام ومقتاً على حاضره ، وسوء ظن بماضيه ، كما أن لها سهماً كبيراً فى الحث على «إصلاح الديانة وإصلاح القانون الاسلامى»[1] وليكن للبلاد الاسلامية والشعوب المسلمة اكتفاء ذاتى فى الثقافة والتربية كما يجب أن يكون لها استقلال فى مجال السياسة والاقتصاد .

تلك هى أهداف حقيقة يجب أن نصبو إليها ، ونضعها فى اعتبارنا ، ونجعلها نصب أعيننا ، أما مجرد التعليم والتثقيف ، والتأهيل لشغل الوظائف والمناصب ، فليس مما يثنى به على جامعة ، وليس أبداً مما يجلب الحمد ويستخرج الاعجاب .

---

(١) لبرجع التفصيل إلى بحث الكاتب بعنوان «المستشرقون ، نفوذهم فى ميدان التفكير ، فى كتابه «الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية فى الأقطار الاسلامية» ص ١٨٧ ـ ١٩٨ الطبعة الرابعة دار القلم ـ الكويت .

الغرض الأصيل من العلم والأدب ، هو نفخ روح الإيمان واليقين فى الحياة والمجتمع :

يجب أن يكون هدف الجامعة ـ التى قامت فى هذا العهد العصيب ، وفى هذه البلاد المتأزمة ـ أن تعمل على إزالة الاضطراب والقلق الذى يسود جميع الدول الاسلامية منذ مائة عام تقريباً ... تفككت عرى عقائدنا منذ بدأ الغزو الفكرى والحضارى الغربى ، وحدث صراع نفسى وفكرى استنفدت مقاومته معظم القوى العقلية والفكرية والعلمية لدى الدعاة ... ان ذلك الوضع غير طبيعى يجب أن يزول فى أقرب وقت ، لكى تتوجه هذه القوى والقدرات إلى الأهداف البناءة وإلى إنقاذ البلد ودفع عجلته إلى الأمام .

الحقيقة أن الأدب والشعر ، والفنون الجميلة والحكمة والفلسفة ، والتأليف والتصنيف ، ليس من وراء كل ذلك إلّا غرض واحد ، وهو أن تتولد فى صاحبه حياة جديدة ، وإيمان جديد ، وبالتالى فى الأمة التى هو عضو فيها والمجتمع الذى هو جزء منه .

وأود أن أنشد لكم أبياتاً قالها شاعر الاسلام الدكتور محمد إقبال وهو يخاطب الأديب والشاعر ، لأنه ينطبق على الوضع الذى نعيشه جميعاً :

«يا أهل الذوق والنظر العميق ! أنعم وأكرم بنظركم ، ولكن أى قيمة للنظر الذى لا يدرك الحقيقة ؟ لا خير فى نشيد شاعر ولا فى صوت مغن ، إذا لم يفيضا على المجتمع الحياة والحماس ، لا بارك الله فى نسيم السحر إذا لم تستفد منه الحديقة إلّا الفتور والخمول

والذوى والذبول» .

إن الأوضاع التى نمر بها تحتاج فيها إلى أن نأتى بأعجوبة ، وتلك الأعجوبة سوف لن تتحقق إلّا عن طريق الرسالة الإسلامية ، لأنها وحدها التى تجعل حاملها يصنع المعجزات ويأتى بخوارق العادات ، ويبطل المقاييس ، ويحطم المعايير التقليدية ، ويسخر من كل الموازين التى آمن بها العالم الغربى الجاهلى ، يقول الدكتور محمد إقبال :

أنا لا أعارض التذوق بالجمال والشعور به ، فذلك أمر طبيعى ، ولكن أى فائدة للمجتمع من علم لم يكن تأثيره فى المجتمع كتأثير عصا موسى فى الحجر والبحر ، وذلك أن الأمم لا يرتفع شأنها ومكانها فى خريطة العالم حتى تقدر على صنع المعجزات» .

دور مصر الاسلامية القيادى فى العالم الاسلامى :

إن مصر الاسلامية اليوم بفضل ما سجل لها التاريخ من دور رائع فى إنتاج عدد كبير من المؤلفين والمحققين ، والمحدثين والمؤرخين ، والقادة والمجاهدين ، وما قامت به من دور حاسم فى الحروب الصليبية[1] والغزو التتارى[2] ، وما تملكه من وسائل

(١) ذلك عن طريق حاكم مصر وقائدها الملك الناصر السلطان صلاح الدين الايوبى ، وانتصاره فى معركة حطين الفاصلة فى ١٤/ربيع الآخر سنة ٥٨٣هـ (١١٨٧م) ، واستعادته بيت المقدس للمسلمين (بعد نحو تسعين سنة من استيلاء الصليبيين عليه) فى ٢٧/رجب ٥٨٣هـ (١١٨٧م) ، وصلح الرملة فى سنة ١١٩٢ المسيحى .

(٢) إشارة إلى انتصار سلطان مصر المملوكى المظفر سيف الدين قطز ، وقائده ظاهر بيبرس البنقداوى فى معركة عين جالوت فى رمضان ٦٥٨هـ (١٢٦٠م) وانهزام التتر انهزاماً عديم المثال غير مجرى التاريخ ، وأعاد الثقة إلى المسلمين ، فقد كان من الأمثال السائرة ومن المسلمات التى لا تقبل الجدل (إذا قيل لك أن التتر قد انهزموا فلا تصدق) .

النشر والتصدير ، والقيادة فى العلم والأدب ، وبفضل وجود الأزهذ الشريف ، تحتاج بصفة خاصة إلى هذه القدرة على صنع الخوارق ، والتأثير فى المجتمع كتأثير عصا موسى فى الحجر أو البحر ، لأن عليها تعود مسئولية بعث الدول العربية كلها بعثاً جديداً ، إن عليها أن تنفخ روحاً جديدة فى البلاد العربية الاسلامية ، وتوجد لديها ثقة جديدة ، وإيماناً جديداً ، ونشاطاً جديداً ، وانتعاشاً جديداً ، وطموحاً جديداً ، وقلباً خفاقاً جديداً ، يتحرق على بؤس الإنسانية وشقائها ، وشجاعة جديدة تبعث على المغامرة والاقتحام ، وجرأة خلقية تستطيع بها أن تنفخ الحياة فى هذه الأمم والأقوام المشرفة على الهلاك ، التى تزل أقدامها ، وترتعش أعصابها ، وتخفق قلوبها ، وتتعثر عقولها ، وقد كانت مهد الانتفاضة الاسلامية والدعوة القوية إلى الصحوة الاسلامية الشاملة حين ساد الجمود والخمود على كثير من الأقطار العربية ، ولا يزال لها جوهر إسلامى نقى يبرز لامعاً صافياً إذا نفض الغبار عنه .

والحمد لله رب العالمين .

مباحث الكتاب

الموضوعات	الصفحة

المقدمة ٥

الفصل الأول :

الدعوة الإسلامية في العصر الحاضر ٩

الفصل الثاني :

الدعوة الإسلامية في الهند ٢٣

الفصل الثالث :

دور الجامعات الإسلامية في ٥٥
تكوين الدعاة وتربية العلماء